■ الباب السادس

أصهب ديترويت

THE AUTOBIOGRAPHY OF MALCOLM X

كنت أقامر في المراهنات كل يوم بكل ما أجمعه من البقشيش الذي يصل خمسة عشر وعشرين دولار أحياناً وأحلم بما سأفعله حينما أكسب جائزة كبرى .

رأيت أناساً في فورة إنفاق طويلة مسعورة بعد أن وفقوا وفازوا بالجائزة . لا أقصد بذلك الفتوات الذين كان المال بحوزتهم دوماً وإنما أقصد الناس العاديين من النوع الذي لولا ذلك لما كنت تراه في مكان مثل سمول والذين تركوا عملهم مع شركات الرجل الأبيض بعد أن فازوا . كانوا في الغالب يشترون كاديلاكاً ولمدة ثلاثة أو أربعة أيام يبحبحون ويعزمون أصدقاءهم على الشرب وشرائح البفتيك . وكنت أضطر لضم طاولتين في واحدة حتى يسعهم المجلس وفي كل مرة أحضر حاملاً صينيتي كانوا يمنون عليَّ بدولارين أو ثلاثة كبقشيش .

يقوم مئات الألوف من الزنوج في مدينة نيويورك بالمقامرة كل أيام الأسبوع ما عدا يوم الأحد ويضعون مبالغ تتراوح من بنس واحد إلى مبلغ كبير في مراهنات الثلاثة أرقام ويكسب الإنسان عندما تتطابق الأرقام الثلاثة التي اختارها مع آخر ثلاثة أرقام من مجموع مبيعات البورصة المحلية والأجنبية التي تنشر يومياً . ومع احتمال الكسب الذي يعادل واحد من ستمائة فرصة ، فإن البنس الواحد يكسب ٦ دولارات والدولار يكسب ستمائة دولار وهكذا دواليك أي أنك إذا وضعت ١٥ دولارا فستكسب تسعة آلاف دولار . خبطات مشهورة مثل هذه أتت لصاحبها بنصيب الأغلبية في ملكية حانة أو مطعم في هارلم أو حتى تملكها بالكامل. كانت

فرص الفوز واحدة من الألف وكان بعض اللاعبين يمارسون ما يسمى بالخلطة مثل وضع ست بنسات في ست مجموعات أرقام ، بنس لكل مجموعة من ثلاثة أرقام . الرقم ٨٤٠ مثلاً يمكن أن يخلط لتعمل منه ٨٤٠ ، ٨٠٤ ، ٠٤٨ ، ٨٤٠ ، ٤٠٨ ، ٤٨٠ .

عملياً كان كل سكان الجيتو السود الفقراء في هارلم ، يلعبون كل يوم ولذا احتمال فوز شخص تعرفه كل يوم وارد وإذا كانت الخبطة كبيرة فستصبح تلك الأخبار المثيرة الشغل الشاغل في الحي . لكن المكسب كان في العادة بسيطاً لأن المبالغ المقامر بها بسيطة ، بريزة ، نكلة أو ربع دولار ، إذ كان الكثيرون يقامرون بدولار يومياً ولكنهم يجزئونه . كان عالم المراهنات في هارلم نشطاً كل صباح وعند الظهيرة وعاملو المراهنات يدونون اختيارات المراهنين على ورق في الممرات والبيوت والحانات والمتاجر ومحال الحلاقة وفي الطريق العام . كل ذلك والشرطة تراقب وأي عامل مراهنات يعلم أنه لن يعمر طويلاً في ذلك العمل بدون أن يدفع شيئاً للشرطي المحلي كما أنه كان معروفاً للجميع أن كبار رجال المراهنات كانوا يدفعون بسخاء لمراتب الشرطة الأعلى.

يتحصل صغار عمال المراهنات على عمولة تساوي عشرة بالمائة من حصيلة اليوم التي يقدمونها مع أوراق الرهان لمخدمهم المراقب . (وإذا كسبت فعليك أن تدفع ١٠٪ كبقشيش لعامل المراهنات) . يعمل تحت كل مراقب عدد من عمال المراهنات قد يصل الخمسين ويتحصل المراقب على خمسة بالمائة من حصيلة ما يقدمه للصراف الذي يدفع الجائزة ويدفع للشرطة ويثري بما تبقى . بعض الناس يلعب بنفس تشكيلة الأرقام طوال العام وآخرون لديهم قائمة بالأرقام الرابحة في السنوات الماضية يحسبون منها احتمال تكرار الرقم أو يجدون أية طريقة أخرى للاختيار . البعض الآخر كان يخمن ويختار أرقامه من عنوان ، رخصة سيارة عابرة أو أية أرقام يجدها في خطاب ، برقية ، فاتورة ... إلخ كما كانت هنالك كتب تباع بدولار تريك كيف تحقق أحلامك وتربح الجائزة الكبرى وحتى الوعاظ الذين يروجون للمسيح والغيبيات في أيام الأحد ، كانوا على استعداد للدعاء لك لتكسب مقابل رسوم معينة تدفعها لهم .

قبل مدة قصيرة فاز رقم الرمزالبريدي لمنطقة هارلم وكاد أحد الصرافين أن يفلس . وإذا كتب لهذا الكتاب ، الذي بيديك أيها القارئ ، أن ينتشر في الجيتوات السوداء في عرض القطر وبالرغم من انني لا أقامر مطلقاً حالياً . فأنا على استعداد لأن أدفع مبلغاً صغيراً لأي جمعية خيرية تسميها إذا لم يقم إخوتي السود الفقراء البلهاء بوضع ملايين الدولارات مراهنين على رقم هذه الصفحة أو عدد صفحات هذا الكتاب .

كان كل يوم من أيامي في مشرب جنة سمول يوماً مثيراً لي ومن جهة نظر

هارلمية لم أك لأجد وضعاً أحسن لاكتساب الخبرة . بدأ بعض كبار الدهاة في نيويورك السوداء يعطفون علىَّ ولعلمهم أنني ما زلت بريئاً بمقاييسهم ، بدأوا يرعونني كابنهم لكي أشب عن الطوق . كانت لهم أساليب مباشرة مثل الهندي الغربي ذي البشرة الداكنة الذي كان يشبه رجال الأعمال ويجلس على إحدى الطاولات تحت خدمتي والذي قال لي مرة وأنا أحضر له زجاجة جعة : « قف دقيقة يا رد .» وقف وأخذ يقيسني بشريط أصفر ودون ذلك في مفكرته. وعندما حضرت للعمل في اليوم التالي قدم لي أحد السقاة صرة وعندما فتحتها وجدت بها سترة ثمينة لونها أزرق غامق ومن النوع المحافظ. كانت هدية معتبرة والغرض منها واضح.

أخبرني الساقي أن ذلك الزبون من كبار مديري عصابة الأربعين حرامي الخرافية . كانت تلك عصابة منظمة من المتسلقين الذين كانوا على استعداد ليسلموك عند الدفع وفي مدى يوم أي كساء تطلب مقابل ثلث الثمن. كانت خطتهم تبدأ بأن يدخل عضو من العصابة لا يرقى إليه الشك من سلوكه إلى محل معين قبل وقت الإقفال ويختبئ ليكون بالداخل عند إغلاق المحل وكانوا يوقتون عملياتهم آخذين في الاعتبار توقيت دورية الشرطة. في الليل يقوم ذلك المختبئ بوضع البذلات في أكياس ثم يشغل جرس الإنذار ويستعمل التلفون لينادي على شاحنة تنتظر بطاقمها في الخارج. وعندما تحضر الشاحنة يتم شحنها وتتحرك قبل مجيء الشرطة بدقائق. في مستقبل الأيام تعرفت على عدد من أفراد عصابة الأربعين حرامي.

كانوا ينبهونني بهدوء لأعرف المخبرين بإشارة أو غمزة عين لأن معرفة رجال الشرطة في المنطقة كانت من أبجديات العمل لأولئك المجرمين وبسرعة أصبحت مثلهم في الإحساس بوجود المخبرين وأمثالهم . في أواخر عام ١٩٤٢ كانت لكل وحدة من القوات المسلحة عيونها وآذانها يتسقطون الأخبار التي تهمهم مثل الخدع التي تمارس للتهرب من التجنيد أو من التسجيل في الخدمة العسكرية أو أية مؤامرة على الجنود الزائرين . كان البحارة أو من ينوب عنهم يحضرون إلى حانات هارلم يبيعون الأشياء المسروقة من السفن مثل السلاح والساعات والعطور والكاميرات . بذلك يتحصل هؤلاء الزنوج على الفتات الذي يتركه اللصوص البيض . كذلك كان جنود البحرية يأتون بأشياء أجنبية وبضائع ثمينة بسعر زهيد وأجود أنواع القنب من نوع الجنجة أو الكسكة التي يهربونها من أفريقيا .

في أثناء النهار يعامل الزنوج البيض بتحفظ في هارلم أما البيض الذين يأتون ليلاً فيلقون معاملة أحسن حيث كان كثير من نوادي هارلم الليلية التي يؤمها البيض ترفه عنهم وتسليهم طوال الليل طمعاً في نقودهم . ومع قوات الأمن المنتشرة للحفاظ على «أخلاق » الجنود كانت تلك المحال تعطي من يرتادها من الجنود ما يطلبون ويردون

عليهم فقط إذا تكلموا وذلك كل ما في الأمر إلا إذا كان الجندي من سكان هارلم .

ما كنت أتعلمه في تلك الأيام هو أبجديات عالم الإجرام وهي أنك لا تثق في أحد إلا إذا كان من خاصتك وأن عليك أن تدقق في اختيار من تثق فيهم . كان الساقي يريني مَن مِن الزبائن كان مجرد واجهة ومن منهم كان من عالم الإجرام السري وله صلات مع الشرطة أو مع السياسيين ، ومَن مِن الزبائن كان ميسور الحال ومن كان يعيش من يوم ليوم ، من هم المقامرون الحقيقيون ومن هم الهامشيون ومن منهم علىَّ أن أتقي شرهم . النوع الأخير كان معروفاً جداً في هارلم ومهاباً والكل يعلم أنهم سيحطمون رأس أي شخص يغضبهم وبدون تردد . القدامى كانوا يتميزون عن صغار المسعورين الذين كانوا بصدد تكوين سمعة لهم كمجانين يبطشون بمدية أو مسدس . هؤلاء القدامى كانوا مثل «سامي الأسود » وبوب هولان والملك بادمور وآرشي الهندي الغربي . أغلب هؤلاء كانوا الذراع الأيمن لدتش شولتز الذي شق طريقه بالعنف في عالم مراهنات هارلم عندما تنبه رجال العصابات البيض للثراء الذي يمكن أن يتحقق مما كانوا يسمون « ملاليم النيجرز» حيث كان رجال العصابات البيض يسمون المراهنات « مستودع النيجرز».

تلك كانت أيام سطوة السود قبل قيام تحريات السيبري المشهورة في عام ١٩٣١ والتي أنهت دتش شولتز إلى أن مات اغتيالاً في عام ١٩٣٤ . سمعت قصصاً كثيرة عن كيف كانوا « يقنعون » الآخرين بمواسير الرصاص ، والأسمنت الطري ، وعصا البيسبول وقفازات النحاس والركل والهروات المكسوة بالجلد . كان كل منهم تقريباً قد دخل السجن ثم ظهر على المسرح مرة أخرى ليعمل لصالح كبار الصرافين الذين يتخصصون في المراهنات عالية القيمة .

كان هنالك نوع من التفاهم بين أولئك الزنوج وبين رجال الشرطة السود الأشداء ألا يحتك الفريقان لعلمهم أن بعضهم سيفقد حياته . نعم ، كان في هارلم شرطة من السود أيضاً . هنالك الفرسان الأربعة الذين كانوا يجوبون منطقة شوجر هيل والذين كانوا يمثلون رباعياً قوياً وأذكر أن أحدهم كان له نمش على وجهه ويدعى بريسبن . كان أضخم وأقسى شرطي من جزر الهند الغربية وأكثرهم سواداً. كان الناس يتحاشونه عندما يظهر فيما بين الجادة ١٢٥ والشارع السابع بالمشي في الجانب الآخر من الشارع عندما يرونه في جانب . وأنا في السجن سمعت أنه قتل برصاصة من صبي عصبي مرعوب وصل لتوه من الجنوب ويجهل خطورة بريسبن .

أما القواد الذي لم يكن يشبه « القوادين » فقد كان « كاديلاك » دريك ، وهو أصلع برأس مثل كرة القدم وكرش كبيرة أسماها « ملعب السنونو ». كان لكاديلاك حوالي دزينة من العاهرات المهزولات العجفاوات ، بيضاً وسوداً . في وقت

الظهيرة وعند البار كان معارفه القدامى يمزحون معه سائلين كيف يمكن لهؤلاء النسوة إطعام أنفسهن حتى يطعموه هو ويرد عليهم ضاحكاً بصوت عال : « إن القبيحات يعملن بجد أكثر » .

وعلى النقيض من كاديلاك كان القواد الناعم المستقل « سامي القواد » الذي يستطيع كما ذكرت أن يتنبأ إن كانت أية امرأة ستصبح بغياً من مراقبة تعابير وجهها أثناء الرقص . في مستقبل الأيام سنصبح أنا وسامي أصدقاء أعزاء لبعضنا البعض . سامي المهاجر من ولاية كنتكي كان خبيراً ملماً بصنعته ، وصنعته هي النساء ، ومثل كاديلاك ، كان له عدة نساء ، بيضاً وسوداً ، يعملن تحت إمرته إلا أن نساء سامي – اللاتي كنت تراهن أحياناً في سمول حينما يحضرن يبحثن عنه لتسليمه بعض النقود وليشتري لهن مشروباً – كن من أجمل العاملات في ذلك المجال في أي مكان .

إحدى نساء سامي وتدعى « خوخ الباما » كانت تتشدق في كلامها بطريقة تجعل كل شخص يضحك وحتى النساء الزنجيات اللائي كن يشتغلن كمراقبي مراهنات قرب مكان سمول أحبوها . كان أكثر ما يضحك البعض هو الطريقة التي تقول بها نيجر في ثلاث مقاطع بينما هي كانت تقول : « أ – نا – ف – قط أ حـ – ب الـ – نيجـ – رز ». مقابل كأسين كانت على استعداد لتحكي لك قصة حياتها وكيف أن أول شيء تعلمته وهي صغيرة في الباما هو أن عليها أن تكره الزنوج . ثم بدأت تسمع من التلميذات الأكبر منها سناً في المدرسة همساً عن كيف أن الزنوج فحول وأجسامهم قوية ونشأت تحلم بذلك إلى أن أتتها الفرصة في شكل زنجي يعمل عند أبيها حضر إلى منزلهم فهددته إنه إذا لم يأتها فستصرخ متهمة إياه بمحاولة ذلك . لم يكن أمامه خيار لكنه ترك العمل بعد ذلك . منذ ذلك الوقت إلى أن أكملت المدرسة الثانوية وجدت واستغلت عدة فرص مع رجال زنوج إلى أن حضرت إلى نيويورك بطريقة ما ورأساً إلى هارلم . في وقت آخر بعد ذلك أخبرني سامي كيف وجدها ذات مرة في السافوي ولم تكن ترقص مع أحد ، فقط واقفة تتفرج من الجانب وساعتها عرف من فراسته ما كانت تريد . منذ ذلك اليوم وبعد أن تعاملت مع الزنوج رفضت معاشرة البيض . لا أدري ماذا صار من أمرها الآن .

هنالك قواد آخر ممتلئ الجسم أسميناه « ورقة الدولار » لأنه كان يعرض متباهياً «حزمة مدينة كانساس» المكونة من واحدة وخمسين ورقة بنكنوت ملفوفة بداخلها ورقة من ذات العشرين دولار وتغطيها ورقة أخرى من فئة المائة خارجها . كنا نتساءل ماذا كان سيفعل إذا خطف أحدهم الغطاء . أما من كان باستطاعته وهو مغمض العينين النشل فقد كان شخصاً هزيلاً وهازلاً كنيته « قليل الملابس ». قليل الملابس هذا كان واحداً من أبرع نشالي هارلم في العشرينات حينما كان

البيض يملأون هارلم كل ليلة إلا أنه أصيب بالتهاب المفاصل في يديه . انعقدت مفاصل أصابعه بطريقة لا تسر الناظرين . لم يكن القطقط أو الجليد أو حتى المطر ليمنعه من الحضور إلى سمول كل مساء في السادسة ليحكي قصصاً خرافية عن الأيام الخوالي وأصبح عرفاً في المحل أن يبره زبون بمشروب وأبره أنا بوجبة .

إن قلبي على كل هؤلاء الذين كانوا يملأون عالمنا في الأمسيات عند سمول مثل قليل الملابس . ليتك رأيتهم وهم في نشوة سرورهم يأخذون مقاعدهم باحترام وكأنهم ليسوا متسولين ثم يفردون الفوطة ويتفحصون قائمة الطعام ويأمرون بإحضار ما اختاروا والطاهي يعد أحسن ما عنده عندما يعلم أنه لقليل الملابس لأقدمه له أنا وكأني أخدم مليونيراً .

مرات كثيرة بعد ذلك التاريخ فكرت في تلك الأمور ومعناها لنا . من جانب كنا رابضين هناك نبحث عن الأمان والدفء والطمأنينه في الارتباط مع بعض ولم نكن ندرك ذلك المعنى . منا من كان يمكن أن يقتحم الفضاء أو يكتشف علاجاً للسرطان أو ينشئ المصانع وبدلاً من ذلك كنا ضحايا النظام الاجتماعي الأمريكي الأبيض . من الجانب الآخر كانت مآساة النشال البارع سابقاً في نظر أخوانه كبار المحتالين رمزاً لرحمة الخالق على عباده الضعفاء . وفي نظر الذئاب التي ما زالت تقتنص في الغابة كان قليل الملابس مثالاً لذئب فقد مخالبه لكنه ما زال يجد الطعام .

ثم كان هنالك أيضاً اللص زائر الليل الذي يدعى « اقفز بثبات ». فرض علينا الرجل الأبيض في الجيتو الذي وضعنا فيه إلا نطمح لأشياء عظيمة بل أن ننظر إلى الحياة وكأنها معركة من أجل البقاء وفي مثل مجتمعنا ذلك يحترم الناس من يتمكن من البقاء حيًّا . لن تجد لصًّا أبيض معروفا يكشف عن نفسه في حانة في أي وقت من أحياء البيض ويظل محبوباً ولكنا كنا إذا غاب « أقفز بثبات » لعدة أيام نبدأ في القلق عليه .

سمى « أقفز بثبات » كذلك ، لأنه فيما قيل ، كان وهو يعمل في أحياء البيض السكنية يقفز بثبات بين أسطح المنازل متحاشياً أطراف النوافذ ، يميل متوازياً ويمشي على حافة أصابعه ولو سقط لمات . كان يدخل الشقق من خلال النوافذ بهدوء وقيل أنه كان يسرق من غرفة بينما يكون أصحاب المنزل في الغرفة المجاورة. عرفت بعد ذلك بمدة أنه كان يعمل وهو مخدر بالقنب كما علمني أشياء سأستفيد منها مستقبلاً حينما يضطرني الزمن لكي أنشئ عصابة للسطو المنزلي .

يجب أن أؤكد هنا أن جنة سمول لم تكن عشاً للنصابين ولكني ركزت عليهم فقط لأنني فتنت بعالمهم . في حقيقة الأمر وبالنسبة لرواد اللهو البرئ كانت جنة سمول واحدة من المحلات القليلة المحترمة جداً في هارلم لدرجة أن شرطة مدينة نيويورك كانت

تزكيها للبيض الذين يسألون عن مكان آمن في هارلم . أول غرفة أجرتها بعد أن تركت السكة الحديد (نصف سكان هارلم يسكون في غرف مؤجرة) كانت في ثامن مربع في شارع سانت نيكولاس . كان بإمكان أي شخص أن يدخل غرفة أو أخرى في ذلك البيت ليشتري فراءً ساخناً (مسروقاً) ، كاميرا ممتازة ، عطراً رائعاً ، سلاحاً أو أي شيء آخر ، من النساء الساخنات إلى العربات الساخنة ، وحتى الثلج الساخن . كنت واحداً من عدد قليل من الذكور في ذلك البيت في أثناء الحرب عندما كنت لا تفتح المذياع إلا وتسمع عن جوادال كنال أو شمال أفريقيا . في أغلب الغرف كانت الساكنات بغايا والنزلاء الآخرون كانوا محتالين من نوع آخر – بائعي الحبوب المقوية ، عمال مراهنات وبائعي مخدرات وأعتقد أن كل نزيل كان يستعمل مخدراً من نوع أو آخر . هذا لا يقلل من قدر ذلك المبنى لأن كل شخص في هارلم تقريباً كان يحتاج إلى نوع من الاحتيال على الحياة وأن يبقى مخدراً حتى ينسى ما كان يفعله بدافع البقاء .

في ذلك المنزل تعلمت أشياء عن النساء لم أتعلم مثلها في مكان واحد وعلمتني البغايا هنالك أشياء أعتقد أن كل زوج وزوجته يجب أن يعرفها . في المستقبل تعلمت من النساء الأخريات ألا أثق في أغلب النساء . كان لأولئك العاهرات فيما يبدو أخلاقيات وشعور بالإخاء لم أجده في كثير من النساء اللائي يتعبدن في الكنائس بانتظام بينما يحتفظن في السر بأصدقاء من الرجال أكثر مما يعرفه أولئك العاهرات وأنا هنا لا أستثني السود أو البيض من ذلك . كانت هنالك متزوجات من الجنسين أزواجهن بعيدون في الحرب وهن هنا يصادقن الرجال وينفقن عليهم حتى من مال أزواجهن بينما كانت هنالك أخريات ، أمهات وزوجات ، يتصيدن المتعة في الساحة بينما أزواجهن وأطفالهن في نيويورك .

تلقيت أول دروسي عن أخلاقيات أوعية الصديد عند الرجل الأبيض من أحسن مصدر لها ، من نسائهم . وعندما غرقت أكثر في وحل الشر رأيت أخلاق الرجل الأبيض بعيني رأسي . أنني حتى تكسَّبت وأنا أقوده إلى العفن الذي صان مبتغاه .

كنت يافعاً أعمل في المشرب لحالي ولا ألقي بالاً لأولئك النسوة لكن منظري ربما حرك في أنفسهن غرائز الأخوة أو ما شابه فقد كن يزرنني في غرفتي عندما لا يكن مشغولات فندخن ونتحدث . كان ذلك يحدث في الصباح بعد زحمة العمل ولكن دعني أحدثك عن زحمة العمل تلك . رؤية الممرات والسلالم في ساعات الليل ورجال بيض وسود يمشون ويجيئون هو المتوقع حينما يسكن الإنسان في مبنى تعمل فيه بنات الهوى . لكن ما أذهلني هو أن الازدحام كان يحدث في ساعات معينة مثل ما بين السادسة والسابعة والنصف صباحاً ثم بعد ذلك يخلو المنزل في التاسعة وأكون أنا الشخص الوحيد في المبنى . سبب الازدحام هو الأزواج الذين يتركون بيوتهم مبكرين ليغشوا ذلك البيت

في شارع سانت نيكولاس وهم في طريقهم للعمل . طبعاً لم يكن نفس الأشخاص يأتون كل يوم ولكن يأتي عدد كاف ليسبب ذلك الازدحام بمن فيهم أزواج بيض يأتون في عربات أجرة قاطعة كل تلك المسافة من وسط البلد.

وراء ذلك الازدحام الزوجات المتسلطات ، كثيرات الشكوى والطلبات ، اللائي كدن أن يخصين أزواجهن نفسانيًّا . كن يشاكسن أزواجهن، مما أرهق أعصاب هؤلاء الأزواج وحرمهم من الشعور برجولتهم ، ولذا كانوا يهربون منهن ومن سخريتهن ويحضرون في الصباح الباكر لزيارة بنات الهوى . أما بنات الهوى فقد درسن الرجال لأن طبيعة المهنة علمتهن . كن يقلن إن الرجال بعد أن يتعدوا قمة فحولتهم في العشرينيات من العمر يعاشرون النساء أساساً لإرضاء غرورهم فقط ولأن كثيراً من النساء لا يفهمن ذلك ، تجدهن يتسببن في تحطيم نفسياتهم . أما بنات الهوى فمهما قلّت فحولة الرجل يجعلنه يشعر وكأنه أعظم رجل ولذلك كان الازدحام شديداً عليهن في الصباح . بإمكان كثير من الزوجات أن يحتفظن بأزواجهن إذا عرفن أن أكثر ما يحتاجه الرجل هو إشعاره بأنه رجل .

حكى لي هؤلاء النسوة قصصاً كثيرة ، نوادر مضحكة عن الفرق بين البيض والسود في غرفة النوم وعن الأطوار الغريبة لبعض الرجال . ظننت أنني سمعت كل الغرائب لكنني سأسمع ما هو أغرب في المستقبل عندما كنت أقود الرجال البيض إلى ما يريدون . أما القصة التي كان يضحك لها كل من في المنزل فهي قصة الإيطالي الهزيل الذي أسموه « رجل الدقيقة بعشرة دولارات ». كان يترك مطعمه في السرداب قرب ملاعب البولو ويحضر كل يوم بانتظام عند الظهر ويقضي دقيقتين تماماً ودائما يترك عشرين دولار . في رأي بنات الهوى أن أغلب الرجال ضعفاء لا يتحملون الضغط ودائماً يشكون لهاتيك النسوة كيف أن كل ما يسمعونه من زوجاتهم هو الشكوى بالرغم من كل ما يفعلونه من أجلهن . من الجانب الآخر يجب أن يعرف الرجال ما يعرفه القوادون من أن المرأة تحتاج إلى الملاطفة حتى تعلم شعور زوجها نحوها على ألا يعني ذلك التساهل بل على الرجل أن يكون حازماً . كل النساء ضعيفات وهشات بطبيعتهن يجذبهن الرجل الذي يرين فيه القوة .

من آن لآخر كانت صوفيا تأتي من بوسطن لتزورني وحتى في هارلم أعطاني جمالها وضعاً مميزاً بين الزنوج . كانوا مثل الزنوج في كل مكان وذلكم هو السبب الذي يجعل بنات الهوى البيضاوات يكسبن مبالغ كبيرة . لا فرق بين لانسنج وبوسطن أو نيويورك وما كان يقوله العنصري الأبيض كان صحيحاً في تلك الأيام : كل ما عليك هو أن تضع فتاة بيضاء قرب رجل أسود وسيستجيب . كذلك كانت المرأة السوداء تزغلل عيون الرجل الأبيض ولكنه أدهى من أن يظهر هذا .

كانت صوفيا تحضر في قطار ما بعد الظهر الأخير وتأتي إليَّ في جنة سمول وأقدمها للناس وتبقى حتى ينتهي دوامي . أقلقها سكني بين هؤلاء العاهرات ولكن عندما عرفتها بهن وتحادثن غيرت نظرتها لهن . كن يقلن لها إنهن يتركنني وشأني من أجلها . كنت آخذها ونذهب إلى مشرب فندق برادوك حيث نقابل بعض الموسيقيين الذين أصبحوا يحبونني كصديق قديم : « هاي ، رد – من معنا الليلة ؟» كانوا يخلقون هالة حولها ولم أكن أحتاج لأدفع ثمن مشروب . كان الموسيقيون أكثر الزنوج جنوناً بالمرأة البيضاء وهم بطبيعة عملهم في عالم الفن كانوا أقل قيوداً .

ما لم يكن العنصري الأبيض يعترف به هو الجانب الآخر من الموضوع . عندما يتأخر الليل كنا أنا وصوفيا نذهب إلى بعض الأماكن التي تفتح حتى الصباح وإلى بعض الحانات غير المشروعة . وعندما تقفل نوادي وسط البلد كان كثير من روادها البيض يزحفون إلى تلك الأماكن في هارلم . كان أولئك البيض يعشقون « جو » الزنوج بجنون خاصة تلك الأماكن التي فيها ما يسمى « صول » أو روح الزنوج . أحيانا كان الزنوج يتحدثون عن كيف أن بعض البيض لا يشبعون من صحبة السود والبقاء حولهم في مجموعات . يبدو أن البيض نساءً ورجالاً مفتونون بالسود . أذكر حالة معينة لفتاة بيضاء لم تغب ليلة واحدة عن قاعة السافوي وسحر بها صديقي سامي الذي كان رآها عدة مرات . كانت ترقص فقط مع الزنوج وكأنما هي في غيبوبة وترفض مراقصة الرجال البيض . وعندما يحين وقت الإغلاق في ساعات الصباح الأولى كانت تطلب إلى أحد الزنوج أن يوصلها إلى محطة مترو الأنفاق . وذلك كل ما في الأمر . لم تكشف لأحد حتى عن اسمها دعك من مكان سكنها .

سأحكي لك قصة أخرى غريبة من الجانب الآخر تعلمت منها شيئاً سأتعلمه آلاف المرات في المستقبل . كان ذلك درساً في كيف أن قلوب الرجال البيض وأكبادهم تغلي من الداخل ، مهما حاولوا أن يخفوا ذلك ، عندما يرون رجلاً أسود في صحبة امرأة بيضاء . كان سلوك بعض الرجال البيض خاصة الشباب الهيبي ، متزنجاً أكثر من الزنوج . أحدهم كان يحاكي الزنوج في طريقة حديثه ويغضب إذا اتهمه أي شخص بالعنصرية تلميحاً وهو دوماً أمام العازفين وفي أي مرة يراني كان يبادرني قائلاً : « دادي ، تعال ودعنا نضبط رؤوسنا جيداً .» لم يكن سامي يطيقه لأنه كان في كل مكان نذهب إليه . إنه حتى كان يرتدي بذلة زوت صارخة ويدهن شعره بغزارة وكأنما شعره مكوي كونك ويلبس حذاء بعقدة أمامية مع الجنزير المتدلي من عنقه . كان لا يرى إلا بصحبة امرأة سوداء لدرجة أنه كان يسكن مع اثنتين منهن في نفس الشقة الصغيرة . ولا أدري كيف توافقوا على ذلك ولكن كانت لدي أفكاري الخاصة حول الموضوع .

في حوالي الثالثة أو الرابعة صباح أحد الأيام قابلنا ذلك الشاب الأبيض في حانة كريول بيل . كان مسطولاً بالقنب وقدمت إليه صوفيا ثم تركتهم لتحية شخص آخر أعرفه . عندما عدت بدت صوفيا منزعجة ولكنها لم تخبرني بالسبب إلا عندما تركنا المكان . قال لها ذلك الشاب : « لماذا ترمي فتاة بيضاء مثلك بنفسها مع أسود؟» .

« كريول » بيل – والذي أصله من نيوأورلينز – أصبح صديقي . كنت عندما يغلق محل سمول آخذ بعض البيض مبعثري النقود الذين كانوا يودون مواصلة السهر إلى مكان كريول بيل غير المشروع . ومكان كريول بيل هذا كان عبارة عن شقته أزال منها حاجزاً كي تبدو غرفة الجلوس أوسع لكن جوها وأكلها جعلا من المكان أحد أماكن هارلم الروحية . كان صوت الفونوغراف يأتي ناعماً من بعيد وجميع أنواع المشروبات موجودة وكان بيل يبيع أطباقاً من طعامه الكريولي المتبل – الجمبو والجمبلايا – كما كانت صديقته الجميلة السوداء تقوم بخدمة الطعام والشراب . كان بيل يناديها بالسكر الأسمر وبدأ الجميع ينادونها كذلك . كان بيل يأتي بالطناجر وتأتي السكر الأسمر بالأطباق ويملأ بيل الأطباق بالأكل ويعد لنفسه طبقاً كبيراً ويأكل معنا . كان التفرج عليه وهو يأكل متعة لأنه كان يحب طعامه الشهي وكان يطبخ الأرز بالطريقة الصينية حيث تقف كل حبة أرز لوحدها إلا أنه كان يتفوق على الطريقة الصينية في طريقة إعداده لحيوانات البحر والبقول .

كسب بيل من شقته تلك مالاً كافياً ليفتح مطعماً للأكل الكريولي في هارلم وزين حيطان ذلك المطعم بصور لعبة البيسبول التي كان يعشقها . كانت على الحائط صور كبيرة ممهورة بتوقيع لاعبي البيسبول الكبار بالإضافة إلى صور مشاهير النجوم الذين كانوا يتناولون الطعام عنده أحياناً مع بعض أصدقائهم . لا أدري ما حدث لكريول بيل بعد ذلك ولكنه باع المكان ولم أعد أسمع عنه . سأتذكر أن أسأل عنه بعض القدامى الذين يعرفون .

في إحدى المرات اتصلت بصوفيا في بوسطن ولكنها أخبرتني أنها لن تتمكن من الانفلات لمقابلتي حتى نهاية الأسبوع التالي . كانت قد تزوجت لتوها من بوسطوني أبيض ميسور الحال يعمل في الجيش وقد حضر في إجازة وسيرجع . أخبرتني أنها لا تعني بذلك أن ما بيننا سيختلف فقلت لها ألا تهتم بذلك . كنت قد عرفتها بصديقي سامي وقد خرجنا سوياً في بعض الأمسيات كما أنني ناقشت معه موضوع الاختلاط مع الفتيات البيضاوات وأنا ممنون لسامي لأنه هيأني نفسياً لاحتمال زواج صوفيا . قال سامي أن النساء البيض عمليات جداً وقد سمع الكثير منهن يعبرن عن شعورهن . كن يدركن أن الرجل الأبيض يضطهد الأسود ويضعه تحت حذائه بحيث يمنعه من تحقيق أي شيء لنفسه والمرأة البيضاء من جانبها كانت تشد الراحة وأن تكون محترمة بين بني جنسها

لكنها أيضاً تشد المتعة . لذلك كان بعضهن يتزوجن من رجال بيض بحثاً عن الأمان المادي والقبول الاجتماعي ومع ذلك يقابلن الزنوج خلسة . لم يكن ذلك لأنهن وقعن في حب الرجل الأسود ولكنهن أحببن المتعة خاصة الفاكهة المحرمة .

لم يكن غريباً على رجل أبيض أن يكون دخله عشرين ألفاً أو ثلاثين أو أربعين أو حتى خمسين ألف دولار لكن أن يكون لزنجي دخل من عمله يصل خمسة آلاف دولار ، ذلكم كان الغريب . لذلك كان للمرأة البيضاء التي تصادق أسود واحد من سببين : إما أن تكون تحبه أو إرضاءً لشبقها .

بعد أن قضيت في هارلم مدة طويلة تكفي لأن أتوطن كان لابد أن يصبح لي لقب يميزني عن أثنين آخرين كان لهما شعر أحمر مكوي مثلي ومعروفين وقد عملت مع كل منهما بعد ذلك . أحدهما كان يدعى « أصهب سانت لويس » ويحترف النهب المسلح . دخل أصهب سانت لويس السجن أثناء نزولي به لأنه حاول أن ينهب قهرمان عربة المطعم في قطار بين نيويورك وفيلادلفيا وحتى بعد أن أطلق سراحه عاد إلى السجن مرة أخرى لمحاولته نهب محل للمجوهرات في نيويورك . الأحمر الثاني كان يدعى « أصهب شيكاجو » وقد أصبحنا أصدقاء عندما كنت أعمل نادلاً في أحد الحانات غير القانونية. أصهب شيكاجو هذا كان أكثر غاسل أطباق هزل على وجه البسيطة . حاليا يكسب رزقه ككوميديان قومي من الفكاهة على المسرح والنوادي الليلية ولا أرى سبباً يجعله يستاء لو ذكرت أنه رد فوكس المشهور اليوم .

على أية حال لم يمض وقت طويل حتى صار لي لقب . لا أذكر التاريخ بالضبط ولكن لأن الناس كانت تسألني عن بلدتي لعلمهم أنني من ولاية ميشجان وبما أن أغلب أهالي نيويورك لم تكن قد سمعت بمدينة لانسينج كنت أقول لهم إنني من ديترويت . تدريجيًا بدأوا ينادونني بـ « أصهب ديترويت » ولصق ذلك الاسم بي .

بعد ظهر أحد الأيام في أوائل عام ١٩٤٣ وقبل أن يبدأ جمهور الساعة السادسة في الوصول كان أحد الجنود السود جالساً يشرب وحيداً في أحد الموائد في جانبي . جلس كذلك لمدة ساعة تبدو عليه البلاهة وحاله يرثى لها وكأنما حضر لتوه من أعماق الجنوب . بعد أربعة أو خمسة مشروبات قدمتها له ، ملت ناحيته قليلاً وأنا أمسح الطاولة وسألته إن كان يريد امرأة. كان المفروض فيَّ أن أفهم أن نظام جنة سمول بل وكل حانة تود البقاء في الخدمة يقتضي ألا تقترب من الجنود أو تخدعهم . لقد سبب ذلك مشاكل لعشرات المحلات حتى أن بعضها وضع في قائمة المحلات المحظور ارتيادها على الجنود أو سحبت السلطات ترخيصها .

وقعت في شرك جاسوس عسكري رحب بالفكرة وعبر عن امتنانه وأتقن الدور

بلهجة جنوبية قوية – أعطيته نمرة هاتف واحدة من معارفي اللائي يسكن في نفس المبنى الذي أسكن فيه . لكنني شممت رائحة خدعة فاتصلت هاتفيا بالمنزل بعد نصف ساعة وصدق ما توقعته إذ لم يزر أي جندي المبنى . ساعتها لم أعد حتى إلى المشرب وذهبت رأساً إلى مكتب شارلي سمول.

نظر إلي شارلي قائلاً : « ليتك لم تفعل ذلك » وفهم كلانا ما يعني.

عندما حضر المخبر الهندي الغربي ، جون بيكر ، كنت في الانتظار . لم أسأله حتى أي سؤال . وعندما وصلنا إلى المخفر في الجادة ١٢٥ وجدناه مزدحماً برجال الشرطة في زيهم الرسمي ورجال الشرطة العسكرية يقودون بعض الجنود . تعرف علي بعض المخبرين الذين كانوا يزورون مكان سمول من آن لآخر مثلما كان يفعل جو بيكر . نقطتان كانتا في صالحي أولاهما أنني لم تكن لي صحيفة سوابق والثانية لأني رفضت البقشيش الذي قدمه لي المخبر إذ قلت له إنني إنما أؤدي له خدمة بدون مقابل ويبدو أنهم بسبب ذلك قرروا أن يرعبوني فقط .

لم تكن لدي دراية كافية لأعرف أنهم لم يأخذوني إلى التحقيق الرسمي ويفتحوا بلاغاً ضدي . أخذني جو بيكر إلى غرفة صغيرة داخل مبنى المخفر وهناك سمعنا أصوات شخص يتعرض إلى الضرب . كان يصرخ : « رجاء لا تضربوني على وجهي . إنه مصدر رزقي» ومن كلامه عرفت أنه قواد . « وب ! وب ! لا ! لا ».

(بعد ذلك بزمن قصير سمعت أنهم أعدوا مصيدة لجو بيكر نفسه حيث وجد وهو يحاول ابتزاز قواد مع عاهراته البيضاوات وفصل من شرطة مدينة نيويورك ثم أدانته محكمة ولاية نيوجرسي ودخل السجن .)

ما ساءني أكثر لم يكن فصلي من العمل لكن منعي من دخول جنة سمول ولكنني تفهمت منطق أصحاب المكان لأنني وإن لم أكن مجرماً يلاحقه البوليس ، إلا أن الشرطة كانت ستضعني تحت المراقبة ومن الطبيعي أن يحاول الأخوة سمول حماية محل عملهم .

برهن سامي على أنه الصديق عند الضيق لأنه بعث إشارة لي كي أحضر إلى مكانه . لم أكن قد رأيت مكانه قبلاً فوجدته كقصر صغير ونساؤه جعلن المكان يبدو راقياً وبينما نحن نتحادث عن نوع النصب الذي يلائمني أعطاني سامي لفافة من أجود أنواع القنب الذي استنشقته في حياتي . كذلك عرض عليَّ بعض مراقبي المراهنات أن أعمل معهم ولكن ذلك كان سيعني أن أنتظر طويلاً حتى يكون لدي زبائن دائمون قبل أن أكسب مبلغاً محترماً كما أن العمل كقواد مثل سامي لم يكن يلائمني إذ لم تكن لدي القدرات المطلوبة وسأموت جوعاً لأنني لن أتمكن من إيجاد الزبائن .

اتفقنا أنا وسامي على أن بيع المخدرات كان أكثر شيء يناسبني لأن تلك عملية يمكن أن يقوم بها شخص واحد ويحقق دخلاً سريعاً . لم تكن تتطلب خبرة ما ويمكن تعلمها بسرعة خاصة إذا كان الشخص اجتماعياً بطبعه . كان كلانا – أنا وسامي – نعرف بعض البحارة الذين يمكن أن يمدوننا ببعض القنب . وكان الموسيقيون الذين أصبحت لي بهم صلات زبائن دائمين . كذلك كان الموسيقيون يستعملون مخدرات من النوع الأقوى ويمكنني إذا شئت أن أترق لذلك المستوى . سيكون ذلك أكثر خطراً ولكنه أيضاً أكثر ربحاً فمن بيع الكوكايين والهيروين يمكن أن يكسب الإنسان مائة دولار في اليوم إلا أن ذلك يتطلب خبرة طويلة في التعامل مع شرطة مكافحة المخدرات إذا كان للشخص أن يعمر ويكتسب من ذلك العمل .

عشت في تلك الأماكن مدة كافية مكنتني من التعرف على الشرطة والمخبرين من أشكالهم ما عدا شرطة المخدرات . ومن زبائن جنة سمول الدائمين والنصابين الذين يأتون إلى هنالك تحققت لي صلات مفيدة . كان ذلك مهمًا جدًّا لأنه مثلما يستطيع سامي أن يمدني بالقنب، يعتمد نجاح النصاب على معرفة أين يمكنه أن يلجأ لطلب المساعدة في حالة الضيق . مثل تلك المساعدة قد تعني معرفة أشخاص في الشرطة ومخبرين وربما أعلى من ذلك لكنني لم أصل تلك الدرجة بعد . وهكذا أعطاني سامي مبلغاً كرأسمال وأظنه كان عشرين دولار .

في أمسية نفس ذلك اليوم عدت إلى مكان سامي وطرقت الباب لأعيد له نقوده وأعرض عليه إقراضه بعض المال إذا أراد . من عند سامي كنت قد ذهبت رأساً إلى ممون ذكره لي واشتريت بعض القنب وبعض ورق اللف وعملت منها لفافات في حجم عود الثقاب . عملت عدداً كافياً من اللفافات حتى أتمكن من بيعها لموسيقيين أعرفهم في مكان سمول ، ومكنني ذلك من أن أسدد نقود سامي وأحتفظ بربح يكفيني أن أواصل . عندما رأى أولئك الموسيقيون صديقهم ومعجبهم في عمله الجديد حيوني : « يا صديقي » ، « يا أصهب ، يا مجنون ! »

في كل فرقة موسيقية يدخن نصف العازفين على الأقل نبات القنب . لن أعطي قائمة بالأسماء ولكنها تشمل بعض المشهورين جداً في عالم الموسيقى المحبوبة في ذلك الوقت وحتى بعض مشاهير اليوم . في حالة فرقة معينة ما زالت مشهورة ، كل أعضاء الفرقة كانوا يتعاطونه . كما أنك لو سألت الموسيقيين عن المغني المشهور الذي كان يتعاطاها من خلال عظمة فخذ الفراخ لتعرف أكثرهم عليه . تعاطى ذلك المغني القنب من خلال تلك العظمة بكثرة لدرجة أنه كان يشعل عود الثقاب أمام طرف العظمة ويستنشقها ليحصل على ما كان يسميه سلطنة التلامس .

واستمررت أنا في جمع الأرباح وزيادة إمداداتي وكنت أبيع اللفائف بتحفز وجنون . لم أكن أنام إلا لماماً وكنت تجدني في كل مكان يجتمع فيه الموسيقيون وفي جيبي حزمة من الدولارات . كنت كل يوم أربح خمسين أو ستين دولاراً وتلك ثروة بمقاييس تلك الأيام (وهذه الأيام أيضاً) لصبي زنجي عمرة سبعة عشرة عاماً . لأول مرة في حياتي أعرف معنى الشعور بالحرية . وفجأة أصبحت أنا مصدر إعجاب الجدعان الذين كنت أعجب بهم في السابق.

في تلك الفترة اكتشفت السينما وكنت أحياناً أشاهد خمسة أفلام في يوم واحد في دور عرض هارلم ودور وسط البلد . كنت أحب أفلام العنف والإثارة مثل همفرى بوجارت في « كازابلانكا » وعشقت كل ذلك الرقص والتطويل في أفلام مثل « الطقس العاصف » و«كوخ في السماء ». كنت بعد أن أخرج من السينما أذهب لجمع مواد اليوم ثم ألف قصباتي وعندما يحل الظلام أبدأ دوامي . كنت أعطي لفافتين مجانا لمن يشتري عشر لفافات وثمنها خمسة دولارات ولم أكن نوع البائع الذي يختفي بعد إتمام الصفقة لأن زبائني كانوا أصدقائي . وكثيراً ما شاركتهم التدخين ولم يكن أحدهم يفوقني طربا .

وأنا الآن حر طليق لأفعل ما أشاء قررت فجأة أن أذهب إلى بوسطن . طبعاً قابلت إللا وأعطيتها بعض النقود رمزاً لتقديري لمساعدتها لي عندما حضرت من لانسنج كما قلت لها ، لكنها لم تعد إللا التي أعرفها لأنها لم تكن قد غفرت لي هجري لورا مع أنها لم تذكرها ولا أنا ذكرتها أبداً . ومع ذلك كان شعورها طيباً وأنا أستعد للعودة لنيويورك حين تحادثنا عن التغيرات في أمور أسرتنا . أما ولفرد فقد كان أداؤه ممتازاً في المعهد الذي كان فيه حتى أنهم طلبوا منه أن ينضم لهيئة التدريس كذلك وصلت إللا بطاقة بريد من ريجنالد الذي انضم لسلاح البحرية .

من شقة شورتي اتصلت بصوفيا التي وصلت إلى الشقة في نفس اللحظة التي خرج فيها شورتي للعمل . كنت أود أن آخذها لنذهب إلى أحد نوادي روكسبري ولكن شورتي حذرني أن رجال الشرطة في بوسطن أصبحوا مثل رفقائهم في نيويورك يستغلون حالة الحرب ليتحرشوا بالأزواج المختلطة ، يوقفونهم ويسألونهم عن موقفهم التجنيدي – كذلك جعلنا زواج صوفيا نكون أكثر حذراً .

ركبت صوفيا عربة أجرة إلى منزلها وذهبت أنا لأستمع لفرقة شورتي . نعم أصبحت لشورتي فرقة « موسيقية » ونجح في الحصول على تصنيف من الدرجة الرابعة – ف (إعفاء من التجنيد الإجباري) وقد سررت له وسعدت بزيارتي لفرقته . كانت فرقته لا بأس بها ولكن حظ شورتي كان جيداً حيث كان يعزف في نوادي بوسطن الصغيرة . عدنا إلى شقته نتجاذب أطراف الحديث حتى الصباح .

كان لا يفتأ يقول لي : « يا بن البلد ، إنك لشيء جد مختلف ! » حدثته عن بعض الأشياء المثيرة التي قمت بها في هارلم وعن أصدقائي وعن قصة سامي القواد .

غرر سامي بفتاة في مدينة بادوكا بولاية كنتكي مسقط رأسه وجعلها حبلى مما أثار غضب أهلها عليه لدرجة أنه ترك البلد وحضر إلى هارلم حيث وجد عملاً كنادل في مطعم . كان عندما تأتي امرأة لوحدها لتتناول وجبة في المطعم وبعد أن يتأكد سامي من أنها ليست متزوجة وأنها تسكن لوحدها ، لم يكن من الصعب عليه بعد ذلك بحديثه الحلو أن يجعلها تدعوه إلى زيارتها . كان يذهب عندها ثم يصر فجأة أنه ذاهب لإحضار بعض الطعام فيخرج وأثناء غيابه يعمل نسخة أخرى من مفتاح شقتها – ثم يعود بعد أن يتأكد من غيابها ويسرق كل ماله قيمة في الشقة . يظهر سامي بعد ذلك ويقدم لها المساعدة حتى تقف على قدميها ويكون ذلك بداية اعتمادها عليه ماديًّا وعاطفيًّا وينمي سامي ذلك الاعتماد حتى يكاد يسترقها .

لم يستغرق مخبرو المخدرات في هارلم وقتاً طويلاً قبل أن يخمنوا أنني أبيع المخدرات وأحياناً كان أحدهم يتابعني . كثير من البائعين المتجولين أمثالي دخلوا السجن لأنهم أُوْقفوا والمادة بحوزتهم أما أنا فقد اكتشفت طريقة لتفادي ذلك . القانون واضح في أنه إذا لم تكن المعروضات بحوزتك فلا يمكن اعتقالك علما بأن وضعها في تجويف كعب الحذاء أو شريط القبعة المنتفخ لم تعد حيلاً تنطلي على المخبرين . كنت أنا عادة أحمل خمسين لفافة صغيرة في لفة صغيرة داخل معطفي وتحت إبطي ، ذراعي ملتصقة بجانبي وجيوبي مفتوحة . كنت إذا اشتبهت في شخص ما أعبر إلى الجانب الآخر من الشارع أو أدخل مكاناً ما أو أغير اتجاهي وأرخي ذراعي لكي تسقط اللفة وبما أنني كنت أعمل في أثناء الليل فلم يكن أحد يلاحظ ذلك حتى لو شك فيَّ . وإذا اتضح أنني كنت مخطئاً أعود إلى حيث رميت اللفة وألتقط لفائفي. فقدت عدداً من اللفائف بتلك الطريقة وقد أكون أصبت مخبراً بالإحباط لكنني تفاديت المحاكم بذلك .

ومع ذلك وفي صباح أحد الأيام عدت إلى غرفتي لألاحظ أن شخصاً ما دخلها وكنت متأكداً أن مخبرين فعلوا ذلك . كنت قد سمعت كثيراً عن كيف أنهم إذا لم يجدوا دليلاً ضدك كانوا يأتون « بدليل » ويضعونه في مكان لا يخطر ببالك ثم يأتون بعد ذلك « ليجدوه ». لم أكن بحاجة إلى التفكير فيما أفعل وحزمت أشيائي الصغيرة ولم أنظر خلفي مطلقاً . عندما حانت ساعة نومي كنت نائماً في غرفة أخرى .

في حوالي ذلك الوقت بدأت أحمل معي مسدساً أتوماتيكياً من عيار ٠,٢٥ كنت بادلته ببعض اللفافات مع مدمن سرقه من مكان ما . صرت أضعه تحت الحزام من الخلف لأن أحدهم أخبرني أن الشرطة لا تلمس ذلك المكان عند التفتيش كما

صرت أتجنب الأماكن المزدحمة بالناس . كانت شرطة المخدرات معروفة بأنها تدس « الدليل » في ملابس المشتبه فيه أثناء التفتيش وظننت أنني طالما ابتعدت عن الازدحام وكنت متحركاً فلن يستطيعوا ذلك . لا أدري لم كنت أحمل مسدساً ولكني كنت أعتقد أنهم لن يتمكنوا مني إذا حاولوا نصب فخ لي طالما كان بيدي شيء أدافع به . قل حجم مبيعاتي لأني أصبحت حذراً كما أنني كنت أغير مكان سكني بين الحين والآخر لمجرد الاشتباه من غير أن أخبر أحداً .

أخيراً أصبح معروفاً في هارلم أن شرطة مكافحة المخدرات قد وضعتني في قائمتها الخاصة . أصبحوا يعترضونني وكنت حينها أقول لهم في الحال وبصوت عال يسمعه كل من كان قريباً أنني لا أحمل أي شيء ولا أريدهم أن يدسوا في أي شيء . كان ذلك كاف لمنعهم من ذلك لأن كل هارلم لم تكن تثق بالشرطة مما يجعل الشرطة حريصة حتى لا يتدخل بعض الناس لصالحي بعنف . كان القلق والتوتر قد بدآ يسودان سكان هارلم وبدأت ريح القلاقل وكأنما هي جاهزة للانفجار – وقد انفجرت فعلاً بعد ذلك بمدة قصيرة .

بدأت الأمور تتعقد وصرت أضطر لإخفاء لفائفي في أماكن مختلفة بالقرب من حيث كنت أبيع . كنت مثلاً أضع خمس لفائف في علبة دخان فارغة وأرميها قرب عامود النور أو خلف برميل القمامة أو خلف صندوق وأجعل الزبائن يدفعون لي أولاً ثم أخبرهم أين سيجدون البضاعة . لكن ذلك لم يعجب زبائني المنتظمين إذ كيف تجعل عازفاً موسيقيًا معروفاً يبحث في برميل قمامة . لذلك بدأت التقط زبائن لا أعرفهم من الذين تراهم في الشارع العام وتعابير وجههم توحي بأنهم من متعاطي المخدرات . كنت أستعمل صناديق أشرطة الصليب الأحمر بدلاً من علب السكائر الفارغة ونجحت تلك الطريقة .

ومع ذلك وجدت شرطة مكافحة المخدرات في وسط هارلم أكثر من طريقة لمضايقتي مما اضطرني لتغيير المنطقة فانتقلت إلى منطقة هارلم السفلى عند الجادة رقم ١١٠ . كان يوجد في تلك المنطقة عدد كبير من مدخني القنب إلا أنهم كانوا من الفقراء . كانوا من أفقر من في الجيتو ومن النوع الذي يظل مخدراً حتى لا يواجه وجوده البائس . هنا أيضاً لم أعمر طويلاً وفقدت كثيراً من بضاعتي . كانت لهم غرائز الحيوان لأنهم كانوا بعد أن أبيع لأحدهم يتبعونني وبسرعة اكتشفوا طريقتي . كنت إذا رميت اللفائف يمرقون كالسهم وينقضون عليها مثلما ينقض ديك على حبة قمح . حينما يتحول الإنسان إلى حيوان ، صقر في الجيتو مثلما أصبحت أنا ، يعيش في عالم حيوانات وصقور وتصبح الحياة صراعاً من أجل بقاء الأصلح .

لم يمض وقت طويل قبل أن أصبحت أقترض من سامي ومن الموسيقيين حتى

أشتري إمداداتي وأنسطل أنا وحتى لإطعام نفسي . ثم أعطاني سامي فكرة حين قال لي : « رد ، هل ما زلت تحتفظ ببطاقة السكة الحديد ؟ » كانت ما زالت معي لأنهم لم يستردوها مني . « حسناً ، لماذا لا تستعملها وتقوم بجولات أخرى حتى يهدأ الحال .» وقد كان محقا في ذلك .

وجدت أنني إذا تقدمت وأريتهم بطاقة السكة الحديد وأنا أتحرك بثقة فإن التذكرجي سيدعوك إلى القطار حتى وإن كان عنصرياً أبيض . وحينما يمر ليفحص تذاكر الركاب سيضع على ظهر مقعدك تذكرة توصلك وجهة ذلك القطار . خطر لي أنني يمكنني بذلك أن أسافر إلى أي مكان في الساحل الشرقي وأنا أبيع لفائفي لمعارفي من الموسيقيين المسافرين مع فرقهم . كنت أحمل بطاقة خط نيوهافن كما أنني عملت لمدة أسبوعين في خطوط أخرى لأتحصل على بطاقتها وبذلك كنت مستعدًّا للتوزيع . في مدينة نيويورك أعددت عدداً كبيراً من اللفافات ووضعتها داخل قوارير وسهلت بطاقة الهوية عملي . كان التذكرجي إذا اقتنع بأنك من زملائه العاملين وأنك مضطر للذهاب إلى موطنك لأسباب عائلية يرحب بك بدون تردد كما أن كثيراً من البيض لا يتخيلون أن الزنجي له القدرة العقلية أو الجرأة لخداعهم .

كنت أنزل في بعض المدن التي لي فيها أصدقاء من العازفين يكونون في زيارة لتلك المدينة . « رد ! » وأقدم نفسي كصديق قديم من البلد أو من المعارف في برادوك هوتيل وحينها يحيونني : « يا صديقي ! دادي أو ! » وأنا أحمل سيكار القنب من «التفاحة الكبيرة » . هل سمع أحدكم عن بائع لفائف متجول !

لم أكن أقتفي أثر فرقة معينة وكل أعضاء فرقة كانوا يخبرونني بمواعيد الفرق الأخرى وعندما ينتهي مخزوني من القنب أعود إلى نيويورك لأخذ كمية جديدة ثم أعود إلى التجول مرة أخرى . أضواء الاستادات ودور العرض تلمع والحافلات تقف خارجها وأهل البلدة في أحسن ثيابهم لدخول القاعة . وعند الباب أقدم نفسي أحياناً كأخ لأحد العازفين وأحياناً يظنونني عازفاً في الفرقة . في أثناء الحفل أقوم باستعراض بعض رقصات اللندي لأهل البلدة وبعد الحفل أقضي الليلة في البلدة أحياناً أو أركب مع العازفين في الحافلة إلى أية بلدة يقصدون . وفي بعض المرات كنت أذهب إلى نيويورك وأبقى بها بعض الأيام . انتشر خبر تركي للمدينة ولم يعد رجال شرطة مكافحة المخدرات يضايقونني وهدأت الأمور نوعاً ما . وفي بعض المدن الصغيرة كان الناس يظنونني من أعضاء الفرقة ويحيطون بي حتى أنني وقعت باسمي على بعض الأوتوجرافات . وفي إحدى المرات في مدينة بفالو كاد المعجبون أن يمزقوا سترتي .

وجدت أخي ريجنالد في أحد الأيام وهو ينتظرني في نيويورك . كانت سفينته قد حطت في نيوجرسي وذهب يبحث عني في جنة سمول معتقداً أنني ما زلت أعمل هنالك فدله النادلون على محل سامي الذي جمعه بي . سررت كثيراً برؤيته ولم أصدق أنه نفس الطفل الذي كان يتشبث بي فطوله صار ستة أقدام إلا أنه ما زال أقصر مني ببعض البوصات . كان لون بشرته داكناً أكثر مني إلا أن عيونه خضراء وبعض خطوط الشيب بدأت تغزو مفرقه وبقية شعره يميل إلى الاحمرار مثل شعري . أخذت ريجنالد إلى كل مكان وقدمته لمعارفي .

تفحصت أخي وأعجبني ما رأيت فقد كان يبدو أكثر ثقة مني عندما كنت في مثل عمره . لم يكن لدى مسكن في تلك الليلة ولكن كانت معي بعض النقود وكذلك كانت مع ريجنالد نقود فحجزنا مكاناً في سانت نيكولاس هوتيل التي ستهدم في مستقبل الأيام . تحدثنا أنا وريجنالد طول الليل عن أسرتنا وأخبرته أشياء عن أبي وأمي لم يستطع تذكرها ، ثم أعطاني آخر أخبار أخواتي وإخواني . ولفرد ما زال يدرس في جامعة ولبرفورص . هلدا مازالت في لانسنج وهي تفكر في الزواج حالياً وكذلك كان فلبرت . (أنا وريجنالد نأتي بعدها في العمر) . يفون ، وزلي وروبرت ما زالوا في المدرسة في لانسنج . ضحكنا كثيراً ونحن نذكر فلبرت — الذي أصبح متديناً جدًّا في آخر مرة رأيته فيها — وكيف أنه كان يرتدي واحدة من تلك القبعات المدورة المصنوعة من القش .

بقيت سفينة ريجنالد مدة أسبوع لإجراء بعض الإصلاحات على محركها ويبدو أن ريجنالد أعجب بطريقة حياتي في الاعتماد على شطارتي ولو أنه لم يذكر ذلك . أخبرت ريجنالد شيئاً مما تعلمت بأنك إذا أردت أن تحصل على شيء ما فعليك أن تتظاهر بأنك تملك شيئا ما وعن أهمية مظهر الإنسان . ولأنه كان يرتدي ملابس صارخة فقد طلبت من أحد زبائني أن يحضر له بدلة ومعطفاً محافظين . وقبل أن ينزل ريجنالد حثثته أن يترك البحرية وأنني سأساعده ليجد عملاً في هارلم . يبدو أنني ظننت أن وجود أخي الأصغر معي سيكون فكرة طيبة . حينها سيكون هنالك شخصان أثق بهما — سامي هو الشخص الآخر .

لكن ريجنالد كان شخصاً متزناً . لو كنت في مثل عمره لكنت على استعداد لأن أجري خلف القطار حتى أصل نيويورك وهارلم . كل ما قاله ريجنالد وهو يغادر : « سأفكر في ذلك » .

بعد مدة قصيرة من مغادرة ريجنالد اشتريت بذلة زوت لا توجد واحدة صارخة أكثر منها وكان ذلك في عام ١٩٤٣ . في بوسطن كتبت لجنة التجنيد إليَّ في عنواني عند إللا تستدعيني ولما لم تأتهم نتيجة كتبوا للجنة نيويورك وبواسطة

obeikan.com

سامي وصلتني تحيات العم سام . في تلك الأيام كان أكثر ما يخيفني في العالم ثلاثة أشياء : السجن ، الوظيفة والجيش . كانت أمامي عشرة أيام قبل الظهور أمام لجنة التجنيد وشرعت رأساً في التحضير لها .

كان الجنود السود من عيون الجيش يتسكعون في هارلم متخفين في ملابس مدنية يتلقطون الأخبار لتوصيلها للرجل الأبيض في وسط البلد . وعرفت تماماً أين عليَّ أن أبدأ في إسقاط الخبر . بدأت أتحدث بصوت عال أمامهم عن كيف أنني مهووس بالانضمام إلى .... الجيش الياباني . وعندما أشعر بأن أولئك الجواسيس يتصنتون أبداً في تمثيل دور المسطول المجنون . كثير من فتوات هارلم وصلوا تلك المرحلة فعلاً – كما سأصلها أنا بعد ذلك . ذلك هو المصير المحتوم لكل من ينغمس أكثر وأكثر في المخدرات القوية وفي حياة الرذيلة . كنت أخرج بطاقة الاستدعاء وأقرأها بصوت عال حتى يعرفوا من أنا وتاريخ استدعائي لمقابلة لجنة التجنيد . (ربما كانت تلك المرة الوحيدة في هارلم التي سمع أحد ما فيها اسمي الحقيقي في تلك الأيام) .

في يوم مقابلتي للجنة ارتديت زي الممثل ومع سترة الزوت لبست حذائي الأصفر ذا العقدة الأمامية وجعدت شعري ليقف كغابة من الشعر الأحمر . دخلت وأنا أثب مرحاً ماشياً على رأس أصابعي ورميت بطاقة الاستدعاء المهترئة على الدرج أمام موظف الاستقبال : « أنا المجنون دادي أو ، تحرك ، متى سأرتدي البذلة العسكرية ؟ » لا أعتقد أن ذلك [illegible] قد فاق من الدهشة بعد .

طبعاً وصلتهم أخباري ولكنهم مع ذلك أدخلوني في الطابور حيث كان في تلك الغرفة ثلاثون أو أربعون من المستجدين . عم الهدوء الغرفة وكأنما سقفها سيقع وأنا أجري لساني كيلومتراً في الدقيقة الواحدة وأتكلم بلغة الشارع فقط . سأحارب على جميع الجبهات ، سأصبح جنرالاً يا صديقي قبل أن أنتهي منهم ، وحديث من ذلك النوع . كالعادة كانت الغالبية من الموجودين بيضاً ورقيقو الحاشية منهم كانوا على استعداد للهرب خوفاً مني . بعضهم وضع على وجهه نظرة استهجان واحتقار « لهذا النوع من السود » والبعض الآخر تسلى بمنظر «أراجوز هارلم الأصلي ».

تسلى بمنظري أيضاً بعض من الزنوج العشرة أو الاثنى عشر الموجودين ولكن وجوه بقيتهم المتحجرة بدت وكأنما هم على استعداد للتسجيل في الجيش وقتل شخص ما وربما لا مانع لدى بعضهم من أن أكون ذلك الشخص .

تحرك الطابور وها أنا ذا في ملابسي الداخلية في غرفة الفحص الطبي أهمهم برغبتي في الانضمام بينما عيون كل من في الطابور تقول أن كلا منهم يتمنى أن يصنف في الدرجة الرابعة – ف (إعفاء) . وقفت في الطابور مدة أطول مما توقعت

Obeikan.com

قبل أن ينادوا على اسمي وحينها حضر أحدهم في معطفه الأبيض ليصطحبني إلى ممر دائري . عرفت حينها أننا ذاهبون لمقابلة أخصائي الأعصاب – الطبيب النفساني . واستقبلتني هنالك امرأة زنجية في بداية العشرينيات من عمرها فيما أذكر ولا تخلو من ملاحة . كانت من هؤلاء الزنوج « «الأوائل» .

سيعرف الزنوج ما أتحدث عنه ففي تلك الأيام قلت الأيدي العاملة واضطر البيض لأن يسمحوا لبعض الزنوج بترك مقشاتهم ومنافضهم ومن ثم يحملون قلماً أو يجلسون على مكتب ما بوظيفة ذات اسم رنان ولكنها لا تساوي خردلة . كانت صور هؤلاء « الأوائل» تملأ الصحف الزنجية حتى أنك لا تكاد تقرأ الصحيفة من كثرتها .

كان هنالك شخص ما مع الطبيب النفساني أما الممرضة فلم احتج لأن أمثل أمامها لأنها كانت قد اشمأزت مني سلفاً . وأخيراً رن الجرس في مكتبها إلا أنها لم ترسلني بل دخلت هي إلى الطبيب . خمنت ما كانت تفعل فهي حتماً كانت تحذر الطبيب برأيها عني . هذه ما زالت إحدى مشاكلنا الكبرى في رأيي وهي أن بعض من يسمون « بالطبقة العليا » من الزنوج مشغولون بإفهام الرجل الأبيض أنهم ليسوا من شاكلتنا لدرجة أنهم لا يدركون أنهم بذلك إنما يؤكدون للرجل الأبيض نظرته لنا جميعاً .

بعد أن أوصلت رسالتها وحفظت سمعتها عادت وأومأت لي بالدخول . يجب أن أعترف بأن ذلك الطبيب كان موضوعيًا في عمله لأنه جلس يعبث بقلمه الأزرق على الرزنامة أمامه ويستمع إليَّ وأنا ألغو لثلاث أو أربع دقائق قبل أن يقول شيئاً . كان يحاول بأسئلة هادئة أن يصل إلى سبب استعجالي الحرب . لم أستعجله وصرت ألف وأدور وأنا أراقبه حتى يعتقد إنه واصل لما يريد مني . كنت ألتفت يميناً ويساراً وكأنما هنالك شخص ثالث يستمع . تأكدت أنه سيرجع إلى كتبه يبحث عن تفسير لهذه الحالة الغريبة !

قفزت فجأة ونظرت من خلف البابين ، الباب الذي دخلت منه وباب آخر ربما كان باب خزانة ثم عدت وانحنيت هامساً في أذنه : « دادي ، أو ، أنا وأنت الآن ، كلانا من الشمال هنا فلا تخبر أحداً . أريد أن تبعثوني إلى الجنوب . لننظم هؤلاء الجنود النيجرز . ما رأيك ؟ لنسرق بعض السلاح ونقتل كل البيض ».

وقع القلم من يد الطبيب و تشتت هيبته المهنية في كل الاتجاهات . حملق فيَّ وكأنني ثعبان يخرج من بيضة ويده تبحث عن القلم الأحمر . تأكدت أنني تمكنت منه عندما سمعته وأنا أمر من قرب الممرضة « الأولى » وهو يقول : « يكفي ذلك».

وصلتني بطاقة تصنيف من الدرجة الرابعة – ف باليد بعد مدة ولم أسمع عن الجيش بعد ذلك ولم أهتم بمعرفة سبب رفضهم تجنيدي .